د. إلينا سابونينا

مديرة المركز الروسي للشرق الأوسط وآسيا، معهد الدراسات الاستراتيجية، موسكو

عودة تدريجية:

فرص روسيا في تغيير موازيين القوة بالشرق الأوسط

تسعى روسيا لاستعادة دورها كدولة كبرى في النظام الدولي، وذلك بعد أن شهدت أزمات اقتصادية وعدم استقرار سياسي في حقبة التسعينيات من القرن الماضي، وهو ما ترك تداعيات سلبية على الدور الروسي على الساحة الدولية، بل وفي محيطها المباشر في أوروبا الشرقية ووسط آسيا، ولذلك لم يكن من المستغرب أن تبدي روسيا اهتماماً بمنطقة الشرق الأوسط، وتسعى لاستعادة نفوذها بها، خاصة تحت حكم الرئيس الروسي فلاديمير بوتين.

ويأتي هذا التطور في الوقت الذي تذهب فيه بعض التقديرات للقول بتراجع النفوذ والدور الأمريكي بالمنطقة، وفي ظل توتر علاقة روسيا بالولايات المتحدة والدول الأوروبية بسبب الأزمة الأوكرانية، مما حدا بالبعض للقول إننا على أعتاب حرب باردة جديدة، ومن هنا تكتسب السياسة الروسية تجاه منطقة الشرق الأوسط أهمية متصاعدة.

وتحاول هذه المقالة إلقاء الضوء على سياسات روسيا تجاه منطقة الشرق الأوسط منذ انهيار الاتحاد السوفييتي وحتى الآن لمحاولة الوقوف على عوامل الاستمرارية والتغير في السياسة الروسية تجاه المنطقة، ولاستشراف مستقبل الوجود الروسي في المنطقة وأبعاده.

أولاً: تقييم قدرات روسيا الجيوسياسية

تمتلك روسيا قدرات جيوسياسية كبيرة، فهي أكبر دولة في العالم من حيث المساحة، كما يبلغ عدد سكانها حوالي 146 مليون نسمة، بعد أن كان 144 مليون نسمة، وذلك بسبب ضم القرم في ربيع 2014[1]، وتعد روسيا من الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن والذين يتمتعون بحق الفيتو، فضلاً عن امتلاكها ترسانة نووية كبيرة.

ومن جهة أخرى، تعد روسيا أكبر دول العالم إنتاجاً للنفط (تليها السعودية والولايات المتحدة)، كما أنها تحتل أيضاً المركز الأول من حيث احتياطي الغاز الطبيعي (تليها إيران وقطر). ولقد ساعدت تلك الثروات على دعم المكانة الجيوسياسية لروسيا.

وعلى الجانب الآخر، تعاني روسيا من أوجه ضعف، فعلى الجانب الاقتصادي، يعاني الاقتصاد الروسي من أزمات هيكلية، فلا يزيد نصيب روسيا عن 3% من معدلات التصنيع العالمي[2]، كما أن الاقتصاد الروسي يواجه حالياً تحديات كبيرة بسبب انخفاض أسعار النفط عالمياً بحوالي النصف، فضلاً عن العقوبات الغربية المفروضة على روسيا بسبب الأزمة الأوكرانية، وهو ما أدى إلى معاناة الاقتصاد الروسي من الركود[3]، وتراجع القوة الشرائية للروبل الروسي، فضلاً عن ارتفاع الديون الخارجية للشركات الخاصة والحكومية الروسية، وارتفاع معدلات البطالة، التي أضعفت قوة روسيا على الساحة الدولية، وأضعفت حضورها الاقتصادي في منطقة الشرق الأوسط، وإن سعت لتعويض ذلك من خلال نشاط الدبلوماسية الروسية في منطقة الشرق الأوسط.

ثانياً: التراجع الروسي عقب انهيار الاتحاد السوفييتي

قامت روسيا الاتحادية عقب انهيار الاتحاد السوفييتي في

عام 1991، ومنذ ذلك الوقت، يؤكد قادة روسيا ضرورة إقامة سياساتها الخارجية على أسس برجماتية، على عكس الحقبة السوفييتية، التي كانت تنظر إلى الشراكة مع الدول الأخرى على أسس أيدولوجية، خاصة أنه لا يمكن مقارنة إمكانيات روسيا الحالية بإمكانيات الاتحاد السوفييتي السابق.

ومن أهم التطورات في هذا السياق استعادة موسكو علاقاتها الدبلوماسية مع السعودية في سبتمبر 1990، والتي كانت قد انقطعت منذ ثلاثينيات القرن الماضي، كما استعادت موسكو علاقاتها مع إسرائيل في خريف 1991، وذلك بعد أن كانت العلاقات بينهما قد قطعت منذ صيف 1967، وذلك بسبب رفض إسرائيل وقف إطلاق النار في حربها مع الدول العربية، وعلى الرغم من أن العلاقات الروسية – الإسرائيلية جيدة، فإنها ليست راضية تماماً عن سياسات الأخيرة تجاه فلسطين، وترى ضرورة حل هذه المشكلة من خلال الاحتكام إلى القانون الدولي.

وإجمالاً يمكن القول إن روسيا في عهد "بوريس يلتسين" لم تعر اهتماماً كبيراً لمنطقة الشرق الأوسط، وهو ما يرجع بدرجة كبيرة إلى الاضطرابات السياسية الداخلية والأزمات الاقتصادية المتتالية التي شهدتها روسيا طوال هذه الحقبة، يضاف إلى ذلك عدم تحمس "يلتسين" لتبني سياسات نشطة تجاه الشرق الأوسط، ولعل أبرز مؤشر على ذلك، أنه طوال مدة رئاسته لم يزر الشرق الأوسط بصفته رئيساً لروسيا إلا مرة واحدة، وكان ذلك بمناسبة حضور جنازة ملك الأردن الراحل الملك حسين في عام 1999، كما أن زيارته للقدس وبيت لحم في يناير 2000، للاحتفال بالذكرى الألفين لميلاد المسيح، جاءت بعد استقالته من منصبه في ديسمبر 1999.

ثالثاً: حراك سياسي روسي على الرغم من القصور الاقتصادي

أصبح الشرق الأوسط أكثر أهمية لروسيا منذ رئاسة فلاديمير بوتين، والذي كان قد زار المنطقة للمرة الأولى في عام 2004، أي بعد أربع سنوات من توليه السلطة، حينما زار تركيا، ثم قام بزيارة مصر وإسرائيل والأراضي الفلسطينية في أبريل 2005. وهو ما كان مؤشراً على أن السياسات الروسية في الشرق الأوسط سوف تشهد عهداً جديداً، وذلك في إطار الصراع بين موسكو وواشنطن على النفوذ في مناطق العالم المختلفة.

لذا بدأت روسيا العودة بقوة للشرق الأوسط والدخول كلاعب مؤثر في تفاعلاته ليس من أجل مصالح روسيا بالمنطقة فحسب، ولكن من أجل محاولة كسر احتكار النفوذ الأمريكي بها، وقد انعكس هذا التوجه الجديد في منح روسيا صفة مراقب في منظمة المؤتمر الإسلامي (المعروفة الآن باسم منظمة التعاون الإسلامي) في صيف 2005.

لكن سرعان ما تراجع الحراك الروسي في المنطقة بعد زيارات بوتين، إذ افتقرت موسكو للقوة الاقتصادية اللازمة التي تؤهلها لكي تكون لاعباً مؤثراً في شؤون الإقليم، خاصة مع غياب الاستثمارات الروسية، وعدم تقديم معونات اقتصادية لحكومات المنطقة، أو تقديم الدعم المالي للمنظمات غير الحكومية، وذلك في حين يقوم الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة والصين بدعم العلاقات بدول المنطقة من خلال الاهتمام بتنمية الروابط الاقتصادية، ولذلك تحتل روسيا مرتبة متأخرة، وبفارق كبير، عن كل من الولايات المتحدة والصين فيما يتعلق بالوجود الاقتصادي في الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من السعي الروسي لاستعادة وضعها كدولة كبرى مؤثرة في تفاعلات الشرق الأوسط جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة، فإنها لم تدخل في أي مواجهات حادة مع الأخيرة حول أي من قضايا الشرق الأوسط خلال حكم جورج بوش الابن، وحتى خلال أول عامين من حكم أوباما، غير أن الوضع بدأ في التغير خلال الأعوام الثلاثة الماضية، خاصة مع التدهور الشديد في علاقة روسيا بالدول الغربية بسبب الصراع على النفوذ في شرق أوروبا.

وتُعد تركيا أهم شريك تجاري لروسيا، على الرغم من الاختلاف السياسي بينهما حيال الوضع السوري، إذ بلغ حجم التبادل التجاري بين البلدين في عام 2013 نحو 32.7 مليار دولار، في حين أن إجمالي حجم التبادل التجاري بين الدول العربية وروسيا خلال عام 2013 بلغ حوالي 14 مليار دولار، واحتلت مصر مرتبة الصدارة بمبلغ 2.9 مليار دولار، وعلى الرغم من تواضع حجم التبادل التجاري بين روسيا والدول العربية، فإنه قد شهد زيادة معقولة، فقد بلغ حجم التبادل التجاري بينهما حوالي 8,43 مليار دولار فقط في 2010، وحوالي 1.37 مليار دولار في عام 2000[4].

وعلى الرغم من قصور التحرك الروسي، فقد حاولت تعويض ذلك من خلال التركيز على تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب السياسية، ومن ذلك إعلان موسكو في ربيع 2006 كسر الحصار المالي المفروض من جانب الدول الغربية على السلطة الفلسطينية عقب فوز حركة حماس في الانتخابات البرلمانية في يناير 2006، إذ قدمت روسيا للحكومة الفلسطينية دعماً مالياً بقيمة 10 ملايين دولار. وبطبيعة الحال، فقد كان المبلغ المقدم محدوداً، إلا أنه مَثّل خطوةً مهمة ورمزية أكدت تمايز الموقف الروسي عن نظيره الغربي[5].

ومن الأمثلة الأخرى التي تبين فاعلية القرار الروسي واختلافه عن المواقف الأمريكية بالمنطقة، على الرغم من محدودية الموارد لدى موسكو، قيامها في صيف 2014 بإمداد الحكومة العراقية بطائرات مقاتلة لمواجهة تنظيم "داعش"، والذي كان يزحف عسكرياً تجاه بغداد، وذلك في الوقت الذي طالبت فيه الولايات المتحدة باستقالة رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بدلاً من أن تهب لمساعدة الحكومة العراقية في مواجهة التنظيم[6]، أما بوتين، فقد استجاب لمطالب رئيس الوزراء– وهي الخطوة التي استقبلت بترحاب شديد من جانب الحكومة العراقية السابقة

والجديدة على حد سواء.

وتظهر مثل هذه المواقف قدرة روسيا على تبني سياسة خارجية مستقلة، وقدرتها على معارضة السياسات الأمريكية، إلا أنها ستتجنب الدخول في مرحلة جديدة من الحرب الباردة معها في الشرق الأوسط، وإن دفعت عوامل أخرى في هذا الاتجاه لاسيما الأزمة الأوكرانية، وظهور بؤر توتر جديدة بين روسيا والدول الغربية في شرق أوروبا.

ومن جانب آخر، تدرك روسيا جيداً ضرورة ألا تستند علاقتها بدول المنطقة إلى مواقفها السياسية الداعمة لقضاياهم، فقد أشار رئيس الوزراء الأسبق يفجيني بريماكوف، بأن "عظمة روسيا لا ينبغي أن تبنى على حق الفيتو فقط"، في إشارة إلى حق الفيتو الذي تتمتع به روسيا في مجلس الأمن[7]، وهو ما يعكس إدراكاً روسياً بضرورة تعميق علاقاتها بدول المنطقة في مختلف المجالات، خاصة الاقتصادية والعسكرية.

رابعاً: فرص تغيير ميزان القوى في الشرق الأوسط

كان التهديدان الأساسيان اللذان يواجهان روسيا في منطقة الشرق الأوسط حتى عام 2012 هما الإرهاب وهيمنة واشنطن على منطقة الشرق الأوسط عسكرياً، فقد ذكر تقرير "سياسة روسيا الخارجية وأنشطتها الدبلوماسية"، الذي أعدته وزارة الخارجية واعتمدته الرئاسة في 2007، أن "الدبلوماسية الروسية انطلقت من حقيقة أن الشرق الأوسط في أمس الحاجة إلى الجهود الجماعية للتوصل لتسوية سياسية لمشاكل المنطقة من خلال المفاوضات، وليس من خلال الاحتكام للقوة العسكرية والسياسات الانفرادية للولايات المتحدة في الإقليم، والتي لا تُسفر عن نتائج إيجابية"[8].

وعلى الرغم من السعي الروسي لاستعادة وضعها كدولة كبرى مؤثرة في تفاعلات الشرق الأوسط جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة، فإنها لم تدخل في أي مواجهات حادة مع الأخيرة حول أي من قضايا الشرق الأوسط خلال حكم جورج بوش الابن، وحتى خلال أول عامين من حكم أوباما، غير أن الوضع بدأ في التغير خلال الأعوام الثلاثة الماضية، خاصة مع التدهور الشديد في علاقة روسيا بالدول الغربية بسبب الصراع على النفوذ في شرق أوروبا.

ولذلك فإنه على المستوى السياسي، تبذل روسياً جهوداً دؤوبة للتأكيد على أن لها شركاءً في الشرق تجمعهم مخاوف مشتركة، وهي مهمة ليست سهلة، خاصة في ضوء سعيها الدائم لموازنة علاقاتها بكل من العرب والفرس واليهود والأتراك، إدراكاً منها لوجود تنافس إقليمي بينهم، فضلاً عن تباين مصالحهم.

ولقد أثارت الخلافات بين روسيا من جهة، والولايات المتحدة وأوروبا من جهة أخرى، القلق في الكرملين تجاه كيفية تحديد موقف روسيا المستقبلي، في ضوء التطورات المتسارعة التي يشهدها العالم، وفي القلب منها منطقة الشرق الأوسط، وعجز المجتمع الدولي عن الاستجابة الكافية لتلك التطورات، ولعل أبرز مثال على ذلك الإخفاق في التعامل مع تداعيات الثورات العربية التي قامت في 2011.

ولم تظهر أي أيدولوجية محددة في أعقاب الثورات العربية، لكن غلب عليها التوجه العام المعادي للولايات المتحدة، وهو ما مثّل قاسماً مشتركاً بين روسيا، والدول العربية وتركيا، وذلك على الرغم من انضمام تركيا لحلف شمال الأطلسي (الناتو)، كما يتضح ذلك جلياً في حالة مصر، التي قام بوتين بزيارتها رسمياً في فبراير 2015.

وفي الختام، يمكن القول إن روسيا يشغلها إصلاح الاختلال في توازن القوى القائم في منطقة الشرق الأوسط بسبب الهيمنة الأمريكية، لكن تفتقد، في مساعيها تلك، للقوة الاقتصادية اللازمة، التي تسمح لها بتقوية علاقاتها بدول الشرق الأوسط، وهو ما تبدو فرصه محدودة في المدى المنظور نظراً لانخفاض أسعار النفط، ويضاف إلى ما سبق انشغال روسيا بالصراعات الدائرة في شرق أوروبا مع الولايات المتحدة والدول الأوروبية، وهو ما يؤثر سلباً على حجم انخراطها في منطقة الشرق الأوسط وانشغالها بقضاياه.

1- Russia's state statistic 2014 – 2015, **Russian Federal State Statistic Service**, accessible at: http://goo.gl/l3tcTD

2- Russia - comments about state and figures, "**Development Center" Institute in Russian Higher School of Economics**, 14 January 2014, accessible at: http://www.hse.ru/data/2014/01/14/1326894248/macro_14-01.pdf

3- Russia - comments about state and figures. New edition, "**Development Center Institute" in Russian Higher School of Economics**, 13 March 2015, accessible at: http://goo.gl/ADbGZ1

4- A. Fedorchenko. A. Krylov. The Middle East: Possible Scenarios of Transformation Process, **The Institute of International Studies of MGIMO**, April 2012, accessible at: http://www.mgimo.ru/publications/?id=1003929

5- The Interview of Dr Elena Suponina with Nasser al-Shaer, **Russian Vremya Novostei newspaper**, 19 July 2006, № 126, accessible at: http://www.vremya.ru/2006/126/5/156807.html

6- The interview of Dr Elena Suponina with Deputy Prime Minister of Iraq Hoshyar Zebari, **Russian Voice of Russia**, 17 September 2014, accessible at: http://arabic.ruvr.ru/2014_09_17/277424690/

7- The Interview of Dr Elena Suponina with Academic E. Primakov, **Moscow news Russian newspaper**, №009, 07 April 2011, accessible at: http://www.mn.ru/politics/20110407/300904436.htm

8- Review of Russia's Foreign Policy and Diplomatic Activities, **Russian Foreign Ministry**, March 2008, accessible at: http://www.mid.ru/brp_4.nsf/0/9B6D03B7DC298E37C325741000339BEC